التجلي الثوري والتراثي في أدب المذكرات
–مذكرات الرئيس الشاذلي بن جديد –

د. وليد بوعديلة
جامعة 20أوت1955سكيكدة

الملخص:

تتوقف الدراسة عند مذكرات الرئيس الشاذلي بن جديد، و تدرس حضور الوقائع الثورية و توظيف التراث الشعبي الجزائري بمختلف أنواعه و تبحث

في طبيعة العلاقة بين الكتابة السياسية

و ذاكرة الأمة.

Résumé:

Les études s'arretent au niveau des mémoires de l'ex-président de la république algérienne démocratique et

populaire « CHADHLI BEN DJEDID », et elle étudie la présence de tous les événements de la guerre de libération avec la pratique de toutes les différentes sortes du patrimoine algérien, en cherchant la nature de la relation entre l'écriture politique et la mémoire de la nation.

تمهيد:

تنطلق قراءتنا من فكرة تعددية الأنواع الأدبية وتشعبها في ظل التشابكات الاجتماعية والمتغيرات الاتصالية لدى الآخر الغربي أ والأنا العربي، فلم يعد النص الأدبي مقتصرا على الشعر والقصة والرواية والمسرح فحسب ،بل امتد الفعل النقدي المهتم بالنص الأدبي إلى نصوص جديدة مثل أدب الاعترافات ،الأدب الرقمي ،أدب الرحلات ،الأدب البوليسي ... وأدب المذكرات.

كما تنطلق القراءة من ضرورة انفتاح البحث النقدي الأدبي على المستجدات السياقية في عالم الاجتماع والسياسة،ومواكبة الراهن وتتبع النبض الإنساني في أطروحاته الباحثة في الذاكرة والمستشرفة للآتي، كما هو أمر المذكرات السياسية.

ومن ثمة نتوقف عند مذكرات الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد التي تقدم آراءه حول الكثير من الموقف والحقائق، كما تقترح صفحات من ذاكرة مجاهد بدأ الوعي الوطني لديه من فترة الشباب، وقد أثارت المذكرات الكثير من المواقف عند صناع الحدث الثوري و عند المؤرخين و السياسيين.

و سنتناول مايلي:

1-الكتابة السياسية والذاكرة(الشعبية والثورية)

2-ذاكرة الثورة،أبعاد الحدث الثوري في المذكرات

3-ثورة الذاكرة،حضور التراث الشعبي في المذكرات

1-الكتابة السياسية والذاكرة(الشعبية والثورية):

تعتبر الكتابة أمانة كبير ة بالمفهوم التاريخي والأخلاقي والمعرفي، كما أنها تختصر وتصور مشاعر الكاتب وأفكاره، و تنقل تفاعلاته مع أمته وتجاربها المختلفة في الماضي والحاضر وأشواقها للمستقبل، ولا تغيب الذاتية هنا ومن ثمة وجب التفريق بين الكاتب للمذكرات والمؤرخ.

فالمؤرخ هو الباحث الموضوعي في الحدث التاريخي، المتجرد من الميل والعاطفة، والمهتم بالسرد المنهجي وتناول الأحداث وعلاقتها بالجنس البشري والمعتمد على الخطوات والآليات البحثية العلمية، والمزود بقوة الحقيقة وسلطة الضمير العلمي فقط، وشعاره الحياد والبعد عن النزعات السياسة والفكرية و العقائدية، معتمدا الكثير من الوسائل البحثية ومنها الوثائق، وقد تكون المذكرات التي يكتبها السياسي أو غيره من وثائقه الهامة التي تكشف الحقائق وربما الأسرار.

أما كاتب المذكرات فهو الناقل لمحطات حياته ومسارات انتقاله بين الأمكنة والأزمنة، وقد تتقاطع المسارات الشخصية مع المسارات العامة، فهو يصف الأحداث ويعلق عليها ، عايشها أو شاهدها، فنقرأ عنده أخبارا ومعلومات عن مجتمعه أو منطقته الجغرافية والثقافية، وهنا يحضر الميل الشخصي والعاطفة الوجدانية، وكتابة المذكرات نوع من أنواع الكتابة التاريخية وهو مرتبط بالسيرة الذاتية، بمعنى نجد موضوعية التاريخ وذاتية السيرة.

و عندما تكتب أي دولة لذاكرتها التاريخية فهي تلجأ إلى المختصين ليقوموا بعملية الجمع والتدوين والتمحيص، كما هو الشأن مع التراث ،" فالدولة هي التي تشرف دائما على هذا التراث الدارج منه والمثقف،تستلهمه وتستمد من التميز والتفرد الحضاري، وتعيد إنتاجه عبر هياكلها ومؤسساتها العلمية والثقافية والإعلامية"(1). والمؤرخ قد يعتمد المذكرات في حال غابت الوثائق الأرشيفية الأصيلة أو لم يتصل بها، مع الحرص على مقارنتها بغيرها للتأكد من الحدث التاريخي.

و في السياقات السياسية يتحول التراث إلى أداة تنافس وتجاذب بن التيارات السياسية ، فتتعدد قراءته الأيديولوجية، ويتخذ مدارات فكرية مختلفة، فهو الورقة السياسية المربحة والتي تشكل الموقف وتحدد القناعة، ويكفي أن نعود للمشهد السياسي الجزائري وقراءته لوثيقة بيان أول نوفمبر لنعرف الدلالات والتأويلات التي قدمت للبيان بين الأطياف السياسية المختلفة.

ويتساءل المفكر محمد عابد الجابري ضمن هذا الإطار:إلى أي مدى يمكن الاستفادة من التراث في العمل السياسي لبناء المستقبل؟، ويتوقف عن رواد النهضة ذوي النزعة الإسلامية، فالأفغاني –مثلا– طرحت عليه إشكالية الشرق المستعمر أو المهدد من الاستعمار، فما العمل لواجهته؟، و يقول الجابري بان الأفغاني وظف ما عند المسلمين، أي الدين والتراث لتحميس الماس و استنهاض الشعب(2).

فهو يعتبر الدين جزءا من التراث(و هذه قضية أخرى)، لذلك يبحث في التاريخ الإسلامي للدول التي تأسست مستفيدة من التراث–الدين، فيدرس تجارب السعودية، باكستان، إيران، بل ويتجه إلى عمق التاريخ الإسلامي ليدرس عهد الصحابة والعهد الأموي والعباسي، مؤكدا رؤيته،ف:"في كل مرة تبدأ الدولة على أساس ديني ثم تتحول إلى دولة دنيوية"(3).

ويتساءل الجابري كذلك:هل يمكن أن نؤسس الدولة الآن نظريا واستراتيجيا على أساس التراث مع التفتح الكامل؟، ويجيب:" الذي اعتقده انه إذا لم نحل مشاكل ماضينا فإننا لا نستطيع حل مشاكل مستقبلنا...العودة بالقهقرى إلى الكتب والخزائن والأعلام غير ممكنة لأنه لدينا خصوم هم الغرب."(4)

وعندما نبحث في التاريخ الجزائري ونتأمل النقاشات التي فتحت بين المؤرخ والسياسي يمتد بنا المقام لفتح تفاعلات الثقافي مع السياسي،وهنا تتنوع المواقف والقناعات، و يقترح المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله مقاربة محترمة في هذا المضمار التاريخي و العلمي، فحسبه"هناك اعتقاد سائد عندنا وهو أن المؤرخ كالسياسي، إما أن يكون في السلطة أو المعارضة، و هذا في نظري اعتقاد خاطئ،فالمؤرخ قد يكون متفقا مع السلطة في بعض مواقفها وقد يكون منتقدا تصرفاتها"(5).

والسياسي يتخذ موضعا متعددا في علاقته بالسلطة المتحكمة في أجهزة الدولة، نختصره من منظورنا في المستويات التالية:

- الحضور في السلطة وأجهزة الدولة(الحكومة ومؤسساتها الوطنية والمحلية)
- معارضة السلطة(الأحزاب)
- الحضور في السلطة ومعارضتها في ذات الآن.(وزير من حزب معارض)
- مساندة حينا ومعارضة حينا
- غلبة المعارضة على المساندة(مثل معارضتها في المسائل الاجتماعية والاقتصادية الداخلية،ومساندتها في القضايا المتعلقة بالسيادة الخارجية)
- غلبة المساندة على المعارضة

ولا يخفى علينا –عبر التاريخ– محطات العلاقة بين الثقافي والسياسي، وقد قدم التاريخ العربي الإسلامي الأسماء الثقافية التي اتخذت الموقف المغاير للخطاب السياسي الرسمي أو السلطوي، فالسلطان

يفتح الخزائن كما يفتح السجون، وهو يريد الاستفادة من المثقف(العالم، الشاعر ،الفقيه...)للبقاء في عرشه،" والكثير من سوء التفاهم قد يحصل بينهما وربما سوء الاستغلال أيضا ، فتحل الثوابت بدل المتغيرات وتستبدل الوسائل بالغايات، فيعم النفاق بدل الوفاق ويحل الرياء بدل البناء ، وتصبح الثقافة خماسة في اقطاعية السياسة"(6).

والكتابة السياسية للتاريخ تحرك بين الهوى والعقل أو الموضوعية والذاتية،و هي قد تتضمن الحقيقة والصدق لكن قلب الباحث التاريخي لا يطمئن كثيرا لها،فالمؤرخون يقتربون من أدب لمذكرات ثم يبتعدون بحتا عن مصادر أخرى أكثر قيمة تاريخية مثل الوثائق والتسجيلات الصوتية البصرية للحدث.

ولا غرابة أن يتخذ الكاتب السياسي الفرنسي مثلا المواقف التي تخالف الحقائق التاريخية للوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر وممارساته ضد الأهالي ومحاولاته طمس الذاكرة والدين وكل ما هو جزائري التربة والقيم،و هنا نفتح سؤال المطالبة الجزائرية الشعبية أو الرسمية لاعتراف فرنسا بجرائمها الاستعمارية، وقد تحدث محمد الميلي في الثمانينات من القرن الماضي عن فكرة"الصورة المشرقة للاستعمار عند الفرنسيين، وقال :نحن نشاهد إلى الآن اليوم كيف يتابع مستعمرو الأمس مجهودهم لتبرير الاستعمار وتقديمه في صورة مشرقة، ونحن لا نلومهم في ذلكن لأنه وجه من وجوه استمرار الحرب بشكل جديد وصورة أخرى"(7).

ونعتقد بأن الجزائر بدل أن تجري خلف الاعتراف الفرنسي التاريخي ، عليها أن تجري خلف الوفاء الجزائري الجزائري، بأن تجسد مطالب الشهداء و أحلامهم ببناء دولة قوية ومجتمعا متحضرا متمدنا وطنا ينافس باقي أوطان العالم، وعلى الجزائريين أن لا يؤجلوا مشروعهم الاجتماعي تحديد دستوري وواقعي للقيم والثوابت وعناصر الهوية،فالثورة الجزائرية –على حد تعبير محمد الميلي– "ثورة وطنية من اجل إعادة الاعتبار للقيم الوطنية المرتبطة أساسا بالحضارة العربية الإسلامية...و من هنا كانت الجزائر بعد أن استرجعت استقلالها السياسي مطالبة بحكم الأسس التي قادت ثورتها أن تسعى لإقامة نموذج مجتمعي ومسك اجتماعي يرفض التقليد الأعمى للنموذج الغربي."(8)فأن نأخذ من الغرب قيم التقدم المدني والتطوير التكنولوجية ومبادئ التسيير الإداري والاقتصادي فهذا جيد، أما أن نحول الأنا (الجزائري الأمازيغي العربي المسلم) إلى آخر مشوه في فكره وقيمه فهو الخطأ والضعف.

وقد سئل لمؤرخ أبو القاسم سعد الله عن سبب إهدائه كتاب تاريخ الجزائر الثقافي لجيل ما بعد الثورة، فأجاب بان بعض الذين صنعوا المجد الثوري النوفمبري خانوا الأمانة،و" تخلى بعضهم صراحة عن المبادئ التي كان يكافح من أجلها، وقد غلبت على هؤلاء الأنانية والجهل بحقائق الأشياء وسلموا الراية لمن لا يستحقها و لا يعرف قدرها وتسامحوا مع من خانوا الثورة"(9) ويضيف كذلك في سياق آخر مقدما صورة للجزائر الذي يسير بشخصيتين متناقضتين "ندعي الوطنية ولا نتمسك بمبادئها وندعي الثورية ولا نأخذ بلوازمها ن نعتز بالجزائر ولكننا نسعى للخروج منها ونشبعها كل حين سبا ولعنا"(10).

وقبل أن فتح مذكرات الشاذلي نقدم مثالا عن الاختلاف بين السياسي والمؤرخ في تقديم التاريخ، فالسياسي يقدم العلاقات الجزائرية الأمريكية بخطاب دبلوماتي ولا يجد من التاريخ إلى العلاقات الجيدة والمصير المشترك والتفاهم والحوار، وهذا لأسباب سياسية واقتصادية ولموازنات دولية ن أما المؤرخ فيقدم الحقيقة لا غير ن وعندما نقرا كتاب مولود قاسم نايت بلقاسم نجد الكثير من الحقائق حول هذه العلاقة منذ العهد العثماني وسيطرة الجزائر على حوض المتوسط وتقديم فرنسا للضرائب لمرور سفنها، وكانت أمريكا قد دخلت في تحالفات مع الدول الأوربية للحر ضد الجزائر،و كانت هناك حرب دامت عشر سنوات(ق16)، ثم إن أمريكا لم تعترف بالحكومة المؤقتة سنة1958(11)

-2- ذاكرة الثورة، حضور الثورة في المذكرات:

توقفت المذكرات عند بعض المحطات الثورية التي ساهم الشاذلي فيها أو كان شاهدا عليها،بالإضافة إلى أحداث وقعت في مختلف أرجاء الوطن،تأثرت بها المنطقة الشرقية بطريقة أو أخرى،فبع الفصل الخاص بنشأة الوعي السياسي(45-1954) يأتي الفصل المعنون بسنوات اللهب(54-1956)، ويبدأ هكذا:"عام 55 كان سنة الحسم بالنسبة إلي،ففي الربع الأول منه انتقلت شخصيا من معايشة الظاهرة الاستعمارية ومظالمها إلى محاربتها بحد السلاح،و لا شك أن ذلك الاختيار لم يكن سهلا،بل كان مصحوبا بكثير من القلق والتردد والحيرة،"(12)،ثم يسترسل في تقديم الأحداث التي وقعت له في الجبل ،ومختلف المسؤوليات التي كلف بها،فقد عينه مسؤول الناحية شويشي العياشي نائبا لقائد فوج ثم قائدا للفوج13)....

وكانت البدايات صعبة على الرجل وعلى الثورة أيضا، وكانت الشهور الأول مخصصة لإقناع سكان الأرياف بأهداف الثورة، والتعريف بالمجاهدين الذين وصفتهم فرنسا بقطاع الطرق.

و من الصعوبات الميدانية التي واجهت الثورة وتحدث عنها الشاذلي(14):

1-انعدام التدريب.

2—غياب السلاح، وإن وجد فاغلب المجاهدين لا يحسن استعماله ومعظم الأسلحة هي بنادق صيد أو أسلحة يدوية تعود إلى الحرب العالمية الثانية.

و لتجاز إشكالية السلاح تم أخذ الأسلحة من عند المواطنين وتشجيع المجندين في الجيش الفرنسي على الفرار بأسلحتهم من الثكنات.

و في هذا الإطار لم يتحدث الشاذلي عن ظروف نقل السلاح من تونس، ولم يتوسع في مصادر الأسلحة، و التاريخ الخاص بالتسليح يقول بان نقل السلاح من تونس كان يتم في ظروف صعبة جدا عبر القوافل ،فيحمل الجنود الأثقال الكبيرة، كما تنقل البغال القنابل وأنواع المدافع والرشاشات والألغام... وقد تستمر رحلة القافلة لشهور قبل أن تصل إلى منطقة ما، كما كان الجزائريون في الخراج يساهمون في شراء الأسلحة، و جاءت بعض البواخر من مصر بالدعم، وكل هذا النشاط كان مهددا من الاستعلامات الفرنسية، لذلك هنالك بعض السفن تم حجزها...

وتذكر مذكرات الشاذلي أن أمر للمؤنة كان سهلا، لأن أهل الريف تقاسموا المأكل والمبيت مع المجاهدين، مع أخذ الحذر، فلا يمكن حسب الشاذلي المكوث أكثر من ثلاثة أيام عن السكان خوفا من اكتشاف أمرهم وخشية تعريض حياة السكان للخطر.

وظهرت بسبب تباين القوة العسكرية حر العصابات كحل استراتيجي لاختراق العدو الفرنسي، تقول المذكرات:"كان التكتيك الذي اعتمده بوقلاز هو تشكيل أفواج صغيرة العدد، سريعة الحركة،تتجنب قدر الإمكان مواجهة العدو وتركز نشاطها أساسا على عنصر المفاجئة والكر والفر،لذلك كنا في الغالب نستهدف مواكب التموين العسكرية بالقرب من بلدة السبعة،كنا ننظم كمائن بين بلاندان والطارف،وقد كبدنا العدو في العديد من المرات خسائر فادحة في الأرواح ،فكان يضطر لجلي

صهاريج مياه لغسل الدماء...هكذا نجحنا من الناحية السيكولوجية على الأقل في إشعار العدو بأنه لم يعد هو سيد الموقف."(15)

و يعترف الشاذلي ببعض الأخطاء التي وقعت في الثورة، ويتحدث عن الاختلافات في الأفكار بين القادة،خاصة سنة1955 ، حيث "دخل الأوراس في دوامة الصراعات العصبية وتصفية حسابات بين الإخوة الأشقاء، كان لها انعكاسات سلبية على الولاية الأولى،وحتى علينا في القالة وسوق أهراس، التي عرفت حالة من الفوضى وانعدام الثقة إلى درجة أن الجنود أصبحوا يفرون بأسلحتهم إلى مناطقهم، ولهذا السبب لم نعد نسلم الأسلحة الآلية إلا إلى الجنود الذين نثق فيهم ،كنت آنذاك مسؤولا في ناحية عين الكرمة"(16)

هنا نعود إلى مسألة هامة ، هي أن الثورة فعل بشري، وهي معرضة للخطأ والوقوع في الفعل السلبي، ولا يمكن لخطاب القداسة أن يغطي الحقيقة التاريخية، ويجب تقديم التاريخ للأجيال كما هو من دون تحريف بالزيادة أو النقصان.

ويخصص المجاهد الشاذلي صفحات ليعرف القارئ بالقائد العسكري المدعو بوقلاز،معترفا بأنه"سياسي محنك ومنظم بارع وقائد عسكري لامع"(17)، ويضيف"كان يمتاز بالذكاء والحنكة والصرامة، ويتمتع بقدرة نادرة على التجنيد والتنظيم"(18)، و تتحدث المذكرات عن قيادته للعمليات في القالة وسوق أهراس وجمعه التبرعات وشراء الأسلحة من تونس.

يتوقف كاتب المذكرات عند الصراعات في ناحية سوق أهراس سنة 1955(19)، والتي وصلت حد الاقتتال، وتحول بعض المسؤولين إلى أسياد حرب ، وانعكس هذا على قدرات جيش التحرير، ومن نتائج الاقتتال وفاة جبار عمر أحد أبرز قادة سوق أهراس في ظروف غامضة(20).

ومن أسباب فشل محاولات عمارة بوقلاز تنظيم ناحية سوق أهراس يذكر الشاذلي:

-1-تضارب الرؤى حول الأهداف.

-2-الخلافات حول مسائل الانضباط ومعايير تولي المسؤولية.

-3-احتدام الصراع حول الزعامة لاعتبارات عصبية وعشائرية.(21)

وتعتبر المحطات الثورية في لاندان والزيتونة والقالة من أبرز المحطات التي توسع فيها الشاذلي لأنه عايشها،، و يكشف الصراع مع القومية وحقدهم على المجاهدين(22)،كما يتحدث عن إصابته بطلقات بارجة بحرية فرنسية قرب شواطئ القلة، أثناء انتظار المجاهدين لسفينة محملة بالسلاح، وتستمر الصفحات الثورية، ونقرأ حديثا عن مؤتمر الصومام وغياب منطقة سوق أهراس عنه، وحديثا عن وإنشاء القاعدة الشرقية(1956-1958).

يتحدث الشاذلي عن رفضه مع بعض المجاهدين للقرارات القيادة الثورية فاعتبروا خارجين عن القانون ورفضت لجنة التنسيق والتنفيذ مساعدتهم ماديا وعسكريا فضرب عليهم الحصار واضطر سكان المناطق الحدودية إلى النزوح لتونس(23).

هي محطات هامة لم تقدم للأجيال ، ونحن نحتاج إلى شهادات أخرى للاقتراب أكثر من الحدث الثوري، نحتاج إلى كتابة وتدوين كل الشهادات من الذين صنعوا الحدث أو عايشوه، باستعمال الوسائل المختلة الكتابية والبصرية والصوتية. ويمكن أن نعتبر المذكرات مصدرا هاما للمعلومات حول المنطقة الشرقية و تنظيم قيادتها وفيالقها وكتائبها، ولعل ابر نشاط لها هو تزويد الناحية الثالثة والرابعة بقوافل الذخيرة والأدوية(24).

لقد ألف الباحث رابح لونسي كتاب عن الشاذلي بعد زمن الوفاة بقليل وضمنه مقالة عن المذكرات، وتوقف عند صورة المنطقة الشرقية، يقول"دفاعه عن القاعدة الشرقية أثناء الثورة يعود إلى النقاش الذي طرح آنذاك ومازال إلى حد اليوم حول هذه القاعدة التي فرضها مجاهدو المنطقة فرضا على قيادات الثورة، وما هي في الحقيقة إلا انفصالا عن كل الشمال القسنطيني و الأوراس لدوافع سلطوية بحثه في قراءة البعض من المعارضين لهذه القاعدة الشرقية، وبالطبع العامل والنزعة الجهوية موجودة بقوة في أغلب مذكرات المجاهدين، ومنها مذكرات الشاذلي ،فكل طرف يسعى لإبراز دور منطقته على حساب المناطق الأخرى."(25)

وقد قد م الشاذلي بعض الأحداث من منظوره الشخصي وتعامله الذاتي مع الموقف والواقعة، ونرى بان المذكرات على العموم تقدم صورة صاحبها وهي تنبض بالعاطفة ، بل أساسها عاطفي،

وبالتأكيد أن رؤية المؤرخ للوقائع تكون مختلفة ومؤسسة على الموضوعية واعتماد الوثائق والشهادات والمقارنات ومختلف المصادر التاريخية المعتمدة في البحث العلمي التاريخي.

ومن الاختلافات في تقديم الصورة الثورية والموقف منها نذكر ما قد يقع من اختلافات مع الشاذلي حول قناعاته من مؤامرة العقداء، مقتل عبان رمضان،دور الضباط الفارين من الجيش الفرنسي في الثورة،فبالنسبة لهؤلاء الضباط فالشاذلي كان رافضا لتغيير حرب العصابات بتكوين جيش عصري مدرب لان الشكوك حامت حول واضع خطة تأسيس جيش لا يعتمد حرب العصابات كما حامت حول من يطبقها وهم الفارون من الجيش الفرنسي(26)

تقترح المذكرات علينا بعض مشاهد معاملة الأسرى الفرنسيين، وقد خصص لذلك خمس صفحات(27)، كما تحدث عن تسليمهم للصليب الأحمر من دون تعذيبهم(28).

في الفصل السادس يتحدث الشاذلي عن هيئة الأركان العامكة1958-1959(29)، وفيه شهادات عن الفوضى داخل وحدات الحدود الشرقية، ومحاولات التنظيم فيهان وخصص الشاذلي صفحات عن المجاهد عبد الرحمان بن سالم والشهيد أحمد ترخوش، وعملية دفن المفكر المناضل فرانز فانون.

كما توقف عند تواجد بومدين في غار الدماء بعد تنصيبه على رأس قيادة الأركان في النصف الأول من سنة1960، ويقدم الكاتب رؤية بومدين للضباط الفارين ،أي الاعتماد على قدرتهم في التنظيم والتدريب وصياغة الخطط الحربية و مزجها باستعداد المجاهدين للتضحية والقتال(30).

تلك هي المحطات التي تتوقف عندها المذكرات من ذاكرة الثورة الجزائرية، ونحن نترقب كتابات أخرى لصناع الحدث الثوري، كمن نحتاج لكتابات تقدم التاريخ الثقافي والسياسي للمنطقة (منطقة الطارف وسوق اهراس)، و هو ما يحضر في بعض المراجع و المصادر، ومنها ما هو فرنسي، فقد ألف النقيب فرديناد هيقونيت كتاب "ذكريات رئيس مكتب عربي"عام1858، عندما شغل منصب رئيس مكتب القالة ، وسجل ذكرياته المتعلقة بعادات المنطقة والتجاوزات ضد الأهالي(31).

3- ثورة الذاكرة،حضور الراث الشعبي في المذكرات:

ما إن بدأتُ بقراءة مذكّرات الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد (الجزء الأول) حتى وجدت نفسي

تتبع الصفحات وتلاحق حكايات الرجل وتاريخه وتاريخ عائلته بالطارف، وقد اتّضح للقراءة الحضور الكبير للتراث الثقافي الجزائري في المذكّرات.

ويتخذ التراث أهمية كبيرة في الشأن السياسي والاجتماعي للأمم، و" التراث الشعبي لأمة من الأمم تراث مشترك بين جميع أبنائها ومناطقها، لأنه يعبر عن ضميرها الجمعي ويرسخ قيما نبيلة مشتركة ويتوخى أهدافا حضارية واحدة لجميع متمثليه في الأمة ، أما تنوعه فإنه دليل من دلائل عبقريتها"(32).

و تشكل الذاكرة الشعبية حضور بارزا في المذكرات لتتحول إلى نوع من الذاكرة الثائرة التي صنع التمسك بها نوعا من أنواع المقاومة الجزائرية للمستعمر، نعني هنا المقاومة الروحية والثقافية للوجود الفرنسي، و" لقد حاولت المدرسة الفرنسية من خلال برامجها ومناهجها تجنيب الأطفال تقليد آبائهم في كره فرنسا ومناهضة استعمارها والتي كانت تسعى من ورائها إلى الاندماج وتوطين ثقافتها وقيمها ومبادئها"(33)، ومن ثمة كانت الذاكرة–التراث الشعبي هوية نصية في مذكّرات الشاذلي، فهي خافقة بالحضور التراثي، خاصة في الفصل الخاص بالأصول والطفولة، حيث يتوقّف الكاتب عند الكثير من علامات الذاكرة والأرض، ويرحل بالقارئ في عمق تراب الطارف (وتحديدا قرية السبعة).

فنكتشف حنين الرجل إلى ماء القرية ورائحة الأجداد وأصوات الفروسية، بل ينطلق انطلاقة المعتز بالهوية، حين يقول"أنا أمازيغي عرّبني الإسلام. هذه المقولة لعبد الحميد ابن باديس تمثّل بالنسبة إليّ حقيقة آمنت بها، وحدّدت هويتي وانتمائي، وحتى مكانتي كجزائري في هذا العالم".(34) وتبدأ متعة القارئ في تتبّع العوالم التراثية للكاتب–الرئيس منذ زمن الطفولة، فتقدّم المذكّرات تاريخ عرش الجدايدية، بالإضافة إلى هجرات متتالية لعشيرة الكاتب من اليمن إلى ليبيا وتونس والجزائر، ويلتفت الشاذلي إلى تراث ابن خلدون وحديثه عن رحلات القبائل العربية.

تكشف المذكّرات أهمية وسلطة شيخ العشيرة في التاريخ الجزائري، فهو صاحب السلطة الدينية والدنيوية، إليه الفصل في كل اختلاف، كما نجد شعائر الدفن وأعرافه في المنطقة الشرقية المتاخمة للحدود مع تونس، وفي المقبرة توجد قبة الولي الصالح سيدي خالد التي كانت عبارة عن زاوية لتعليم القرآن، وهي الآن خرابة،(35) "ومازال بعض سكان السبعة، إلى اليوم، يتبرّكون بها، ويكتبون على جدرانها أدعية بالزواج لبناتهم.، والنجاح في الامتحانات لأبنائهم والشفاء من العقم لنسائهم، وحتى أدعية بالحصول على سكن ، كان سيدي خالد بمثابة الولي الصالح."(36).

و يتحدّث الكاتب عن قصص الجدّ وأخباره، بأسلوب أسطوري فيه الكثير من الدهشة والغرابة، ثمّ يمضي في تقديم عوالم الطفولة وتراث الفلاحين وعلاقتهم مع التربة، كما يقدّم الكثير من المعلومات حول جزء من التراث الثقافي الجزائري، رابطا ذاكرته الشخصية بذاكرة المنطقة ، ومؤكدا قيمة التراث والأصالة والدين في حفاظ الجزائري على تميزه عن المستعمر، وهذا أمر لا يتعلق بالزمن الاستعمار فحسب بل يجب أ ن يمتد في زمن الاستقلال أيضا،و"لن يكون إنتاجنا الفكري والفني معبرا عن شخصيتنا العربية العامة وصفاتنا الجزائرية الخاصة إلا بعد أن نعيش فعلا هذه الشخصية ونستعيدها في معاملاتنا وتفكيرنا ومشاعرنا"(37).

و تشير المذكرات إلى جانب مهم من تاريخ التعليم في الجزائر المحتلة، ذلك المتعلّق بالتعليم في المدارس الفرنسية والاختلافات الاجتماعية النفسية بين الجزائري والفرنسي، والتعليم العربي في الكتاتيب (عند الشيخ صالح) ووسائله المتمثّلة في اللوح والصمغ وريشة القصب..

بالإضافة إلى تلك الصور، نقرأ مشاهد عن كثرة الجهل والفقر في أوساط الجزائريين، كما نجد التباين الاجتماعي والفكري بين الريف (القرية) والمدينة (بونة)، (38)، ولمن يبحث في التراث الحضاري الذي أسس للثورة، عليه أن يقرأ قول الشاذلي "لقد تلازم الإيمان بالشهادة بتحرير الأرض تلازما لا ينفصم، لكن دون شطط أو تطرّف"، وهو قول منفتح على الوضوح والبساطة، بقدر انفتاحه على كثير من التأويل حول اختيارات الجزائر الرسمية بعد الاستقلال وتوجّهاتها الإيديولوجية والسياسية إلى اليوم، ونحتاج، هنا، إلى المؤرّخين النزهاء ليكشفوا حقائق الممارسة السياسية وعلاقتها بالإسلام في جزائر ما بعد الاستقلال، سلطةً ومعارضةً وشعباً، و يمكن لكل الباحثين أن يعودوا إلى تراث جمعية العلماء للتأكد من البعد الديني للثورة، وبخاصة كتابات البشير الإبراهيمي.

نعود إلى موضوعنا الأساس، لنجد التراث المحلي في الشرق وأجواء الأسواق الشعبية في بعض الصفحات، أو يوميات الرحلة إلى أمكنة مختلفة وطقوس العمل الشاق في الأرض في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، وممارسات الصيد البرّي لدى الشباب و الكثير من صور وخصائص المجتمع الريفي.

ثم نقرأ قصة هروب جدّه من الجنود الفرنسيين، واختبائه في قبر جده (أب والد الشاذلي)،و لا ننسى حديث الكاتب عن تراث الفروسية ورمزية البندقية لدى الجزائريين، وارتباطها بالعرض والشرف

والشهامة، وكذلك حديثه عن الأولياء الصالحين (مثل سيدي طراد) والحمّامات الشعبية، و في هذا السياق الثقافي نلاحظ ما سبق الحديث عنه في العنصر الخاص بذاكرة الثورة و التقاليد الإسلامية في معاملة الأسرى من خلال قصص حقيقية لأسرى فرنسيين، وهنا نقف أمام هذا التداخل بين الذاكر ة والثورة ،وقد قرأنا بشغف مشاهد أسطورية للمجاهد عبد الرحمان بن سا لم، كما يحدّثنا عن دفن الطبيب والكاتب فرانز فانون ومعه كتبه، وهذا طقس أسطوري يذكرنا بالفراعنة وطقوسهم الجنائزية، وقد أبان الشاذلي عن معرفته بعضا من تاريخ الفراعنة وعبر تقديم فكرة فرعونية قديمة (الإنسان يخطّط والقدر يسخر منه).

وقد عاد الرئيس –الكاتب في الجزء الخاص فترة الاستقلال إلى التاريخ الإسلامي وأخبار الفاطميين، عندما توقّف عند ممارسات بن بلة مع المحيطين به، ووظّف الكاتب بعض الأمثال الشعبية، مثل"ياكلو في الغلة ويسبوا الملة"، في إشارة للذين يحيطون ببومدين (يتظاهرون بالولاء ويطعنون في الظهر)، ولقوة علاقته ببومدين يستعمل الشاذلي صيغة شعبية "راسي وراسو في شاشية واحدة".

الخاتمة:

هذه المذكّرات الكثير منن الحقائق التاريخية حول الرئيس المرحوم ، كما تقدّم الكثير من المحطّات الثورية تقترح و ورؤية المجاهد الشاذلي لبعض الأحداث التي وقع الاختلاف حولها في زمن الثورة، و تقترح المذكرات كذالك _على القارئ_ تاريخا ثقافيا لمنطقة هامة و استراتيجية في الجزائر، هي منطقة الشمال الشرقي، بكل تضاريسها الثقافية التراثية الغنية والممتدة من الماضي إلى الحاضر، ونختم هذه الدراسة بهذه الأبيات اتلي تتحدث عن قيمة الذاكرة في تاريخ الأمم ، وهي من شعر مفدي زكرياء:

والذكريات وإن نفاقم عهدها في أمة،أسبابها تتكرر

يوم الزمان كأمسه، وغداته وحوادث الأيام لا تتغير

إن الجزائر لم تنم عن ثأرها أو تنسها ا لم المصاب الأعصر

(ديوان اللهب المقدس)

المراجع:

1-محمد عيلان:التراث الشعبي الجزائري، مفاهيم وممارسات،مجلة التواصل/ ،عدد4/ سنة 1999، جامعة عنابة، ص177.

2-محمد عابد الجابري:التراث والعمل السياسي،مجلة الثقافة، عدد96،فبراير1984، وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر،ص96.

3-المرجع نفسه،ص97

4-المرجع نفسه،ص99.

5-أبو القاسم سعد الله في حوار مع بشير حمادي، جريدة الحقائق، الجزائر،عدد21,من 24 إلى 30 مارس،ص12.

6- أحمد بن نعمان:هذي هي الثقافة،درا الامة للنشر،الجزائر،ط1996،1،ص175.

7_ محمد الميلي:مواقف جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984،ص12.

8-المرجع نفسه،ص14.

9-أبو القاسم سعد الله في حوار مع بشير حمادي ،ص14ز

10-المرجع نفسه،ص14.

11-انظر مولود قاسم نايت بلقاسم :شخصية الجزائر وهيبتها الدولية قبل 1830،ص214

12_ الشاذلي بن جديد:المذكرات(الجزء الاول -1929-1979)، تحرير عبد العزيز بوباكير،دارالقصبة،2011،ص65.

13-المذكرات،ص66

14-المذكرات،ص67.

15-المذكرات،ص67.

16_ المذكرات،ص70-71

17-المذكرات،ص71

18-المذكرات،ص72.

19- تسمى القاعدة الشرقية أو ولاية سوق أهراس التاريخية.

20_ المذكرات،75.

21-المذكرات،ص76

22-المذكرات،ص79.

23-المذكرات،ص89.

24- المذكرات،ص108_109.

25-رابح لونيسي:الرئيس الشاذلي بن جديد-دراسة اكاديمية حول سياساته ونظامه مع قراءة في الجزء الأول من مذكراته ،دار المعرفية، الجزائر،2013،ص155-156.

26-المذكرات،ص128

27_المذكرات،من ص 139إلى ص143.

28-المذكرات ،ص139.

29- المذكرات منص145إلىص 170.

30-المذكرات،ص154.

31-انظر صالح فركوس:تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال،دار العلوم، عنابة،2005،ص378.

32-محمد عيلان:التراث الشعبي الجزائري، مفاهيم وممارسات،مجلة التواصل/ ،عدد4/ سنة 1999، جامعة عنابة، ص.32

33-سعاد العقون:المدرسة الجزائرية بين الدمج الاستعماري وبناء الوعي السياسي(1962-1970)،مجلة فكر ومجتمع، العدد4،لأفريل 2010،تصدر عن طاكيسج كوم للدراسات والنشر أ الجزائ،ص57.

34-المذكرات،ص21

35-المذكرات،ص26

36-المذكراتً،27

37-عبد الله شريط:من واقع الثقافة الجزائرية،الشركة الوطنية للنشر،الجزائر،دت،ص135..

38-انظر المذكرات،ص33 و مابعدها